سِلْسِلَةُ: إِتْحَافِ الحَاضِرِ والبَادِي بِتَفْرِيغِ أَشْرِطَةِ العَلَّامَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ هَادِي (٦٣/ ٧)

دروس رمضانية (٧)

قيام رمضان وحال النبي ﷺ فيه

لِفَضِيلَةِ الشَّيخِ العَلَّامَةِ

د. مُحَمَّدِ بْنِ هَادِي المَدْخَلِي -حَفِظَهُ اللهُ-

المُدرِّس بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية سابقًا

ألقاه فضيلته بعد عصر الأربعاء، العاشر من رمضان ١٤٤٥هـ

في مسجد بدري العتيبي بالمدينة النبوية

اعْتِنَاءُ

أَبِي قُصَيٍّ المَدَنِيِّ

-عَفَا اللهُ عَنْهُ وعَنْ والِدَيْهِ ومَشَايِخِه وَالمُسْلِمِيْنَ أَجْمَعِيْنَ-

بسم الله الرحمن الرحيم

دروس رمضانية (٧): قيام رمضان وحال النبي ﷺ فيه[١]

قال الشيخ محمد بن هادي المدخلي -حفظه الله-:

«السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمدٍ، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أيها الإخوة الكرام: هذا هو اللقاء السابع في الشهر العظيم -شهر رمضان المبارك- عام خمسة وأربعين وأربع مئة وألف من هجرة المصطفى ﷺ.

أيها الأحبة: هذا الشهر هو شهر التنافس في الطاعات، فَلْنُرِ الله ﷻ من أنفسنا خيرًا.

ومن أعظم الطاعات: الصلاة؛ صلاة الليل بعد الفريضة، وكنا قد أشرنا بالأمس إلى طرف من هذا، واليوم نزيد الموضوع كلامًا، وبيانًا؛ وذلك لأنَّ قيام هذا الشهر خاصة سبب لمغفرة الذنوب، كما علمنا جميعًا: «**مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**»[٢].

أيها الإخوة: إنَّ قيام الليل صفة عباد الرحمن التي أثنى عليهم بها ﷻ في كتابه في مواضع متعددة، فمن ذلك قوله: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ٦٣ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا ٦٤﴾ [الفرقان:٦٣-٦٤].

فوصفهم الله ﷻ بهذا الوصف العظيم؛ وهو القيام والسجود له -تبارك وتعالى-، ووصفهم هنا بأنهم عباده، يعني هم العباد الحقيقيون حقًا الذين عرفوه حق المعرفة، فقدروه حق قدره، فخافوا منه -تبارك وتعالى-، فسارعوا إلى طاعته؛ رغبة فيما عنده، وابتعدوا عن معصيته؛ خشية ما عنده مما أعده الله للعصاة.

---

(١) ألقاه فضيلته بعد عصر الأربعاء، ١٠ رمضان ١٤٤٥هـ في مسجد بدري العتيبي بالمدينة النبوية.

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه» برقم (٣٧)، ومسلم في «صحيحه» برقم (٧٥٩).

فقال ﷻ فيهم: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا ٦٤﴾ [الفرقان:٦٤]، وقال فيهم في الآية الأخرى في سورة الذاريات: ﴿كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ١٧ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ١٨﴾ [الذاريات:١٧-١٨]، وقال مادحًا لهم في سورة (الم السجدة): ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ١٦ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٧﴾ [السجدة:١٦-١٧].

قال ﷻ في وصف هؤلاء العالمين العارفين به: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ﴾ الجواب: لا ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٩﴾ [الزمر:٩].

فالذين يعلمون في محاريبهم، والذين لا يعلمون في لهوهم، ولذة القيام على أهله أعظم من لذة اللهو على أهله، فلذلك سَهُلَ على أهل القيام قيامهم، كما سَهُلَ على أهل اللهو لهوهم.

ولهذا قال بعض السلف: (أهل الليل في ليلهم كأهل اللهو في لهوهم)، فكما أنَّ صاحب اللهو لا يحس بالوقت، ولا يتعب لتلذُّذه باللهو واستحلائه له؛ هكذا صاحب القيام، فلذلك هوَّن الله القيام على الطائعين، فأصبح ألذَّ على قلوبهم من اللهو على أهل الباطل، مع المفارقة بين الصورتين، لكن المقصود به تهوين الأمر على أهل القيام بسبب اللذة التي يجدونها، كما أن طول الوقت وضياع الوقت قد سهل ولم يحس به عند أهل الباطل، فيذهب الليل عليهم كله، فهكذا أهل القيام بسبب لذَّته على قلوبهم لا يحسون بالليل، فما يشعرون إلا وقد اقترب الفجر؛ لأنهم يتلذَّذون بمناجاة بارئهم وخالقهم، قال ﷻ: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ١٦ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٧﴾ [السجدة:١٦-١٧].

وقد أمر الله ﷻ نبيه بالقيام في سورة كاملة لا تخفى على كل مسلم، قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡئٗا وَأَقۡوَمُ قِيلٗا ۝٦﴾ [المزمل:١-٦] إلى آخر الآيات.

قال ﷻ مادحًا المتعبِّدين المتهجِّدين في الآية السابقة التي هي في سورة الذاريات: ﴿كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ۝١٧﴾ [الذاريات:١٧]، فدلَّت على أنَّ أكثر الليل يقومونه -رضي الله تبارك وتعالى عنهم-.

وقد أمر الله ﷻ نبيه بقيام الليل، وتلاوة القرآن فيه، فقال ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ﴾ خطاب للنبي ﷺ ﴿نَافِلَةٗ لَّكَ﴾ هذا القيام نافلة ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ۝٧٩﴾ [الإسراء:٧٩]، و(عسى) في حق الله ﷻ للتأكيد، وليست للترجي كما هو عندنا نحن الخلق، فإنَّ (عسى) إنما هي للتأكيد: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلۡمُفۡلِحِينَ ۝٦٧﴾ [القصص:٦٧]، فالشاهد: الآيات في هذا الباب كثيرة.

وإذا كان رمضان -معاشر الأحبة- الذي هو ميدان التنافس في الطاعات، وقد نصَّ فيه النبي ﷺ على أنَّ قيامه سبب لمغفرة الذنوب؛ فكيف يتكاسل عن قيام رمضان عاقل يسمع النصوص! عاقل يريد نجاته يوم البعث يوم الجزاء يوم الوقوف بين يدي الله ﷻ! كيف يتساهل في القيام في هذا الشهر! كيف يتساهل وقد أعانه الله على نفسه، ويسَّر عليه القيام؛ وذلك بخِفَّته، وبقلة طعامه، وحبس عدوه عنه، وبرؤيته لإخوانه المؤمنين في المساجد يعمرونها، فإنَّ العبد قد يضعف بنفسه، فإذا رأى غيره من إخوانه نشط، فهكذا صلاة الليل في رمضان في الجماعة في المساجد وخصوصًا مَنْ مَنَّ الله عليهم بسكنى الحرمين، كيف يتخلَّف الناس عنها وقد يسَّرها الله ﷻ عليهم! لكن يا -معاشر الأحبة- الموفَّق من وفَّقه الله، والمحروم من حُرِمَ من طاعة الله -تبارك وتعالى-، فنسأل الله العفو والعافية.

ففي هذه الآيات التي سمعنا التي في سورة الفرقان جعل الله ﷻ قيام الليل من صفات عباد الرحمن، وهذا شرفٌ لهم؛ حيث أضافهم الله ﷻ إليه فقال: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ [الفرقان:٦٣].

وفي آيتي الذاريات: ﴿كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ١٧ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ١٨﴾ [الذاريات:١٧-١٨]، جعل ﷻ قيام الليل صفة لعباده المؤمنين، ولأوليائه المتقين.

وأما سورة الزمر: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ﴾ [الزمر:٩] فقد وصف الله ﷻ أهل قيام الليل بالعلم بالله، وبما أعده ﷻ لعباده، فقال: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا﴾ لماذا؟ ﴿يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ﴾ [الزمر:٩]، فهذا الذي علم ما عند الله -تبارك وتعالى-، فقام بحق الله ﷻ، وفي سورة المزمل أمر الله ﷻ رسوله ﷺ وهو المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر بقيام الليل إلا قليلاً منه، وفي آية الاسراء أمره بالتهجد بهذا القرآن من الليل، وأنه سبب لأعلى المقامات في الآخرة، فقال سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ٧٩﴾ [الإسراء:٧٩].

وقد امتثل -عليه الصلاة والسلام- ذلك غاية الامتثال، فهل نمتثل نحن؟! فإذا كان هو المغفور له ﷺ ما تقدم من ذنبه وما تأخر قام حتى تفطَّرت قدماه، كما في حديث عائشة -رضي الله عنها- المتفق عليه(١)، فسألته -عليه الصلاة والسلام-: لم تصنع هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال لها -عليه الصلاة والسلام-: «**يَا عَائِشَةُ، أَفَلاَ أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ عَبْدًا شَكُورًا؟**».

فدل ذلك -يا معاشر الأحبة- على أنَّ قيام الليل لله -تبارك وتعالى- والناس نيام؛ من صفات عباد الله الشاكرين له ﷻ الذاكرين له، فنسأل الله ﷻ أن يجعلنا وإياكم منهم.

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» برقم (٤٨٣٧)، ومسلم في «صحيحه» برقم (٢٨٢٠).

فهذه صلاته ﷺ بالليل؛ كان يطيل ذلك إطالة بالغة، لأجل ذلك تفطَّرت قدماه؛ يعني تشققت من طول القيام، والنبي ﷺ لما سئل عن أفضل الصلاة، قال: «**أَطْوَلُهَا قُنُوتًا**»(١).

وربنا ﷻ يقول: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة:٢٣٨]، فطول القنوت هذا أفضل الصلاة.

والناس اليوم لا يريدون ذلك، يريدون نقرًا للصلاة كنقر الدِّيَكة، صلاة لعلها لا تكون مقبولة -إن كانت على هذا النحو- بل لا تكون مقبولة، تُلَفُّ كما يُلَفُّ الثوب الخَلِق، ويُرمى بها في وجه صاحبها، وتقول له: «**ضَيَّعَكَ اللهُ كَمَا ضَيَّعْتَنِي**»(٢).

فالعبد إذا جاء إلى المسجد عليه أن يقوم بالصلاة، الصلاة على الوجه المطلوب بخشوعٍ، وخضوعٍ، وطمأنينةٍ، ووقوفٍ بين يدي الله، واستحضارٍ أنه بين يدي الله ﷻ إن لم يكن يراه فليعلم أن الله ﷻ يراه، فقد كان -عليه الصلاة والسلام- يطيل الصلاة بمفرده، ويطيلها مع أصحابه، وهو المغفور له كما تقدَّم معنا.

جاء في حديث عبد الله بن مسعود ﷺ كما هو في «الصحيحين»(٣) عند البخاري ومسلم قال: صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ، فَأَطَالَ الصَّلاةَ حَتَّى هَمَمْتُ بِأَمْرِ سَوْءٍ، قِيلَ لَهُ: وَمَا هَمَمْتَ بِهِ؟ قَالَ: «هَمَمْتُ أَنْ أَجْلِسَ وَأَدَعَهُ»، هَمَّ بأمر سوء من طول صلاة النبي ﷺ.

هذا الطول المبهم هنا يصفه لنا حذيفة ﷺ(٤)؛ إذ قال: صليت مع رسول الله ﷺ ليلة -يعني في المسجد-، فافتتح البقرة، فقلت: لعله يقف عند المئة، قال: فمضى، فقلت: يقرأ بها في الركعة، قال: فمضى، فافتتح صورة النساء، ثم أتى عليها، حتى أتى على آخرها، ثم افتتح سورة آل عمران ﷺ، قال: ثم ركع ركوعًا نحوًا من قيامه، -انظر! الركوع بقدر قراءة البقرة

---

(١) أخرج مسلم في «صحيحه» برقم (٧٥٦): «أَفْضَلُ الصَّلَاةِ طُولُ الْقُنُوتِ».

(٢) أخرجه الطيالسي في «مسنده» (١/ ٤٧٩) برقم (٥٨٦)، وغيره.

(٣) أخرجه البخاري في «صحيحه» برقم (١١٣٥)، ومسلم في «صحيحه» برقم (٧٧٣).

(٤) أخرج مسلم في «صحيحه» برقم (٧٧٢).

وآل عمران والنساء-، ثم قام قيامًا طويلاً نحوًا من ركوعه، ثم سجد سجودًا طويلاً نحوًا من قيامه، كل ذلك وهو يترسَّل في قراءته، لا يمر بآية فيها سؤال إلا سأل، ولا بآية فيها تعوُّذ إلا تعوَّذ، هكذا صلَّى النبي ﷺ ركعة واحدة يا ناس فيها البقرة وفيها آل عمران وفيها النساء، يعني كم جزء؟ خمسة أجزاء وقليل، في هذه السور كلها، قام بها في ركعة، وركوعه نحو قيامه، ثم اعتداله نحو ركوعه بعد أن يقول: (سمع الله لمن حمده) ثم سجوده نحوًا من ذلك، إلى آخر صلاة الركعة، ومع هذه القراءة لا يمر بآية فيها سؤال إلا سأل، ولا بآية فيها رحمة إلا سأل الله من فضله، ولا بآية فيها تعوُّذ إلا استعاذ بالله ﷻ على هذا النحو.

فهل نحن نُصلِّي الصلاة بطمأنينة وإطالة كهذا؟ هذا ما نقدر عليه، ولكن علينا جميعًا أن نتقن هذه الصلاة، وأن نحسنها، فلا ننقرها نقرًا.

وليُعلم: أنَّ أفضل الصلاة أطولها قنوتًا؛ يعني قيامًا، كما أمرنا الله ﷻ بقوله: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة:٢٣٨].

فالواجب على المسلم أن ينتهز الفُرَص، ففرص النشاط في مثل رمضان، إخوانك جميعًا إلى المساجد، فلا تُضَيِّع هذه الفرصة، فإنه: «**مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**»، فقيام الليل -معاشر الأحبة- من أعظم أسباب الفلاح، ومن أعظم أسباب الربح والنجاح يوم القيامة على طول العام، فكيف إذا كان هذا القيام في رمضان بالخصوص الذي قال النبي ﷺ: «**مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**»، هذا الشهر شهر مضاعفة الأجور، نسأل الله ﷻ لنا ولكم من فضله.

والأحاديث في هذا كثيرة، حتى إن بعض الأئمة كتبوا فيها كتبًا مستقلة، كما ذكرنا لكم بالأمس؛ الإمام محمد بن نصر المروزي إذ عنده كتاب «الوتر» وكتاب «قيام الليل»، وساقوا في ذلك الأحاديث المبينة لفضل قيام الليل، وعظيم أجره عند الله تعالى يوم القيامة.

* فمن ذلك: ما جاء في حديث أبي أمامة رضي الله عنه أنه قال: قال ﷺ: «**عَلَيْكُمْ بِقِيَامِ اللَّيْلِ، فَإِنَّهُ دَأْبُ الصَّالِحِينَ قَبْلَكُمْ، وَهُوَ قُرْبَةٌ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ**» هذه هي الثانية، «**وَمُكَفِّرَةٌ لِلسَّيِّئَاتِ**» هذه الثالثة، «**وَمَنْهَاةٌ عَنِ الْإِثْمِ**» هذه هي الرابعة، هذا الحديث الذي هو عند الترمذي وحسَّنه الشيخ ناصر رحمه الله تعالى (١) تضمن عدة أمور:

الأول: أنَّ قيام الليل دأب الصالحين، فتركه دأب البطَّالين الذين حرموا أنفسهم، نسأل الله العافية والسلامة، ونحن مأمورون بأن نقتدي بأهل الاهتداء: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام:٩٠]، فأنت تقتدي بأهل الهداية والصلاح.

فَتَشَــبَّهوا إِن لَم تَكونوا مِثلَهُم ... إِنَّ الـتَشَــبُّهَ بِـالـكِـرامِ فـلاحُ

فأنت إذا لم تكن تقدر على العمل الذي يعملون؛ فلا أقل أن تتشبَّه، تقترب منهم، فلعل الله ﷻ أن يحشرك في زمرتهم.

[الثاني]: كما تضمن هذا الحديث الدلالة على أنَّ قيام الليل من أسباب القرب إلى الله -تبارك وتعالى-، فهو قربة إلى الله -عزَّ وجل-.

[الثالث]: ودلَّ أيضًا على أنه يُكفِّر السيئات.

[الرابع]: كما دلَّ أيضًا على أنه ينهى عن الآثام: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾ [العنكبوت:٤٥] الآية، فلا شك، هذا كله ثابت في فضل الصلاة وقيام الليل بالذات، كما أنه تقرُّبٌ إلى الله بالنوافل التي يقول فيها الله ﷻ في الحديث القدسي: «**وَلَا يزالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بالنَّوافِلِ حتَّى أُحبَّه، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ**»(٢).

(١) أخرجه الترمذي في «جامعه» برقم (٣٥٤٩)، وحسنه الشيخ الألباني في «الإرواء» (٢/ ١٩٩) برقم (٤٥٢).

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه» برقم (٦٥٠٢).

فكم من الأجر في هذا! فالتقرب إلى الله بنوافل الطاعات -ومن أعظمها الصلاة- فيه هذا الأجر، نسأل الله ﷻ ألا يحرمنا وإياكم من فضله، فما أعظم الأجر، وما أسهل العمل وأقل العمل، ولكن أين القائمون بذلك؟ نسأل الله ﷻ أن يجعلنا وإياكم ممن وفِّقوا له.

* وجاء عن سهل بن سعد ؓ أنَّ جبريل -عليه السلام- قال للنبي ﷺ: «**يَا مُحَمَّدُ...، وَاعْلَمْ أَنَّ شَرَفَ الْمُؤْمِنِ قِيَامُ اللَّيْلِ، وَعِزَّهُ اسْتِغْنَاؤُهُ عَنِ النَّاسِ**» هذا عزة النفس، فكما أنك تحب عزة نفسك استغنِ عن الناس، وإذا كنت تحب هذا لنفسك؛ فلا تُضَيِّعها من الأول، وهو الشرف العظيم عند الله، وشرف المؤمن إنما هو في قيام الليل.

وهذا الحديث خرَّجه الطبراني، والحاكم وصححه، وصححه الذهبي في «التلخيص»، وهكذا صححه الشيخ الألباني ؒ تعالى[1].

فهذا تصريح صحيح في أنَّ شرف المؤمن في قيام الليل، كما أنَّ فيه بيان لعزة المؤمن، وسببها، وأنه بسبب استغناءك أنت عن الناس، فإذا استغنيت عن الناس؛ أغناك الله.

إِسْـتَـغْـنِ بِـالله تَـكُـن غَـنِـيًّـا ... اِرضَ عَـنِ الله تَـعِـش رَضِـيًّـا

كما يقول أبو العتاهية.

* وجاء أيضًا عن أبي مالك الأشعري ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ فِي الْجَنَّةِ غُرَفاً يُرَى ظَاهِرُهَا مِنْ بَاطِنِهَا، وَبَاطِنُهَا مِنْ ظَاهِرِهَا، أَعَدَّهَا اللهُ تَعَالَى لِمَنْ أَطْعَمَ الطَّعَامَ، وَأَلَانَ الْكَلَامَ، وَتَابَعَ الصِّيَامَ، وَأَفْشَى السَّلَامَ، وَصَلَّى بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ**».

فجعل النبي ﷺ في هذا الحديث -الذي خرَّجه الترمذي وهو حديث حسن، حسَّنه الشيخ ناصر أيضًا[2]- جعل في هذا الحديث هذه الأمور كلها من أسباب علو الدرجات،

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٤/ ٣٠٦) برقم (٤٢٧٨)، والحاكم في «المستدرك -ط دار الكتب العلمية» (٤/ ٣٦٠) برقم (٧٩٢١)، وحسَّنه الألباني في «الصحيحة» (٢/ ٤٨٣) برقم (٨٣١).

(٢) أخرجه الترمذي في «جامعه» برقم (١٩٨٤)، وحسَّنه الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٢١٢٣).

وسكنى الغرف العالية التي يُرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها في جنة عدن، ومنها النص على صلاة الليل والناس نيام، وهذا كله متوفر في هذا الشهر: إطعام الطعام، والمسارعة فيه بين المسلمين.

فلا تحرم نفسك يا عبد الله والله ﷻ يعطيك لو على شق تمرة، لو على شربة ماء، تُفَطِّر عليه الصائم، كوب بنصف ريال تعطيه للصائم فيشربه؛ يأجرك الله ﷻ، ولا ينقص من أجر الصائم شيء، فإطعام الطعام وإلانة الكلام، ولهذا تجد أهل الإسلام في رمضان من أحسن الناس أخلاقًا، وأزكاهم نفوسًا، وأطيبهم كلامًا؛ وذلك لأنَّ الله ﷻ قد مَنَّ عليهم بهذه الفريضة -فريضة الصيام- المُهَذِّبة للنفس، كما قال النبي ﷺ: «**مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ وَالجَهْلَ، فَلَيْسَ للهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ**»(١).

والحاصل: أنَّ إطعام الطعام وإلانة الكلام واتباع الصيام، وهذا أيضًا حاصل في هذا الشهر؛ متابعة الصيام حاصلة، وإفشاء السلام كذلك تكثر في رمضان أكثر منها في غيره، والصلاة بالليل والناس نيام هذا أظهر وأظهر، وأظهر ما تكون حينما تأتي العشر الأواخر، فيجتهد الناس فيها في الصلاة أكثر مما يجتهدون في بقية رمضان -العشر الأُوَل والعشر الوسطى-، فلهذا لا ينبغي للمسلم العاقل أن يدع لنفسه الحبل على الغارب، ويدعها بلا خطام ولا زمام، فيفوت عليه هذا الموسم ولم يستفد منه ولم يستغله، فإذا كان كذلك فمتى؟

كما قال النبي ﷺ في الحديث الذي رقى فيه درجات المنبر الثلاث وهو يقول: «آمِينَ، آمِينَ، آمِينَ»، فسُئل عن ذلك رسول الله ﷺ فقال: «**أَتَانِي جِبْرِيلُ، فَقَالَ لِي: يَا مُحَمَّد، رَغِمَ أَنْفُ امْرِئٍ أَدْرَكَ أَبَوَيْهِ، أَوْ أَحَدَهُمَا فَلَمْ يُدْخِلَاهُ الجَنَّةَ، قُلْ: آمِينَ، قُلْتُ: آمِينَ، وَرَغِمَ أَنْفُ امْرِئٍ ذُكِرْتَ عِنْدَهُ**

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» برقم (٦٠٥٧).

فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْكَ، قُلْ: آمِينَ، فَقُلْتُ: آمِينَ، وَرَغِمَ أَنْفُ امْرِئٍ أَدْرَكَ رَمَضَانَ فَلَمْ يُغْفَرْ لَهُ، قُلْ: آمِينَ، فَقُلْتُ: آمِينَ»(١).

إذا كان هذا الشهر -شهر استعداد النفوس وخفتها إلى الطاعة ومسارعتها إليها- لم يحصل لبعض الناس الغفران فيه، فمتى؟ فنسأل الله ﷻ العفو والمسامحة، ونسأل ﷻ أن يثبتنا وإياكم على الطاعة، وأن يهدي سائر إخواننا المسلمين ممن فرَّطوا في هذا.

وهذا هو شهرنا قد مضت منه عشر، والليلة نستقبل العشر الوسطى، فاللهَ اللهَ -يا معاشر الأحبة- لا يُفَرِّط العبد، فلا يدري أيدرك رمضان القادم أم لا يدركه، فعلى العاقل أن يأخذ نفسه بالحزم.

قيل لبعض السلف وقد رُؤي في حالة ضعف من الصيام والقيام، قالوا: لو ترفق بنفسك فقد أتعبتها، قال: (راحتها أردت) الراحة يوم القيامة، الدنيا ما هي راحة، الدنيا دار الهم، والغم، والعَنا، وسريعُ تقضِّيها، وقريبٌ زوالها، وإذا أضحكتك يوم أبكتك أيامًا، ومن أرادها فهو الغبي حقيقة؛ لأنه كلما اقترب منها ابتعدت منه، فنسأل الله ﷻ أن يحول بيننا وبين اغتيالها، والهائها لنا عما يرضي ربنا عنا ويقربنا إليه.

وجاء في مثل هذا الحديث أيضًا السابق حديث عبد الله بن سلام -رضي الله تبارك وتعالى عنه- الذي قال فيه: لما قدم النبي ﷺ المدينة انجفل الناس إليه، وقيل قدم رسول الله ﷺ، فجئت في الناس لأنظر إليه، فلما استبنت وجهه عرفت أنَّ وجهه ليس بوجه كذَّاب.

عبد الله بن سلام من علماء اليهود، وأبوه من علماء اليهود، عبد الله من أحبار اليهود ﷺ، ويعرف وصف رسول الله ﷺ في التوراة.

---

(١) أخرجه بنحوه: أحمد في «مسنده» برقم (٧٤٥١)، والترمذي في «جامعه» برقم (٣٥٤٥)، وصححه لشواهده الشيخ الألباني في تحقيقه لكتاب «فضل الصلاة على النبي ﷺ» (ص ٣٠).

قال: فلما استبنت وجهه عرفت أنَّ وجهه ليس بوجه كذاب، فكان أول شيء تكلَّم به أن قال: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَفْشُوا السَّلَامَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ، تَدْخُلُوا الجَنَّةَ بِسَلَامٍ**»، خرَّجه الترمذي، وابن ماجه، وهو حديث صحيح(١).

فجعل النبي ﷺ قيام الليل من أسباب دخول الجنة بسلام: ﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ۝٤٦﴾ [الحجر:٤٦]، نسأل الله ﷻ أن يجعلنا وإياكم من هؤلاء.

فاللهَ اللهَ -يا معاشر الأحبة- في قيام الليل، والآن قد خفَّ الأمر وسَهُل؛ عشر ركعات في مسجد النبي ﷺ كما هو في بقية المساجد، وينبغي لمن سكن مكة والمدينة ألا يُفَرِّط في الصلاة في مسجد ﷺ وفي بيت الله الحرام، إلا إن كان عنده عذر فلا بأس، لكن من مُكِّن؛ فهو مغبون إذا ترك الصلاة في هذا المسجدين، فصلاة في المسجد الحرام بمائة ألف صلاة، إن صلَّى فريضة فبمائة ألف فريضة، وإن صلى ركعتين نافلة فبمائة ألف ركعتين، وإن صلَّى جنازة فبمائة ألف، وإن صلَّى استسقاء فبمئة ألف، وإن صلَّى جمعة فبمائة ألف، وإن صلى خسوفًا أو كسوفًا فبمائة ألف، وإن صلى عيدًا فبمائة ألف؛ لأنَّ قوله -عليه الصلاة والسلام-: «**صلاة**» هذه نكرة في مساق الخبر، ومن فوائد النكرة في مساق الخبر أنها تفيد العموم، فتعم كل صلاة تحصل في هذا المسجدين المباركين، نسأل الله ﷻ أن يوفقنا وإياكم لطاعته.

وعلى العبد إذا صلَّى ألا ينصرف حتى تفرغ الصلاة؛ حتى يكتب له أجر قيام ليلة، سواء في المسجد النبوي، أو في المسجد الحرام، أو في أي مسجد من المساجد، فإنه إن انصرف قبل ذلك؛ فقد ضيَّع خيرًا كثيرًا في وقت يسير تركه، كله ما يقارب نصف ساعة أو ربع ساعة أو عشرين دقيقة إذا كان في المساجد التي تطيل قليلاً.

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» برقم (٢٣٧٨٤)، والترمذي في «جامعه» برقم (٢٤٨٥)، وابن ماجه في «سننه» برقم (١٣٣٤)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٢/ ١١٣) برقم (٥٦٩).

فنسأل الله ﷻ أن يجعلنا وإياكم بمنه وكرمه من المحظوظين، وألا يجعلنا من المحرومين.

كما نسأله ﷻ بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يغفر لوالدينا ووالديكم، وجميع من سبقنا من إخواننا المسلمين إليه، وأن يُنَوِّر على أهل القبور قبورهم، وأن يغفر للأحياء، وييسر لهم أمورهم، وأن يتوب علينا وعلى جميع التائبين، وأن يغفر ذنوبنا وذنوب المذنبين، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

كما نسأله سبحانه أن يصلح أحوالنا وأحوال المسلمين في كل مكان، وأن يعم بالخير والأمن والإيمان بلاد المسلمين، وأن يحفظ بلادنا هذه من كل سوء، وأن يجعل كيد من أرادها بسوء في نحره، وأن يقينا وأن يقينا وأن يقينا ويحمينا من شَرِّه، إنه جواد كريم، وصلَّى الله وسلَّم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه بإحسانٍ إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين».

اعْتِنَاءُ

أَبِي قُصَيٍّ المَدَنِيِّ

-عَفَا اللهُ عَنْهُ وعَنْ والِدَيْهِ ومَشَايِخِه وَالْمُسْلِمِيْنَ أَجْمَعِيْنَ-

فِي السَّادِسَ عَشَرَ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ عَامَ خَمْسَةٍ وأَرْبَعِينَ وأَرْبَعِمِئةٍ وأَلْفٍ مِنَ الهِجْرَةِ